نظرية المقامات_في التفكير البلاغي عند العرب
قراءة حمادي صمود للمنجز البلاغي للجاحظ أنموذجا

عيدي عبدالقادر طالب دكتوراه
المشرف: هندة بوسكين أستاذة محاضرة قسم أ
مخبر : اللسانيات التطبيقية وتعليم اللغات
جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله

الملخص :
يطرحُ هذا المقالُ معيار المقامية_في التّفكير البلاغيّ عند العرب ، و أنا أروم تأصيل هذا المعيار_في التراث البلاغي من خلال قراءة حمادي صمود للمنجز البلاغي عند الجاحظ ، إذْ تُعدّ المقامية أحد المعايير النّصية السّبعة_في الدراسات اللسانية الحديثة .
كلمات مفتاحية :
المقامية — التراث البلاغي – الجاحظ - حمادي صمود - المعايير النّصية

Abstract:

This article presents the criterion of the situationality in the rhetorical thinking of the Arabs. However, I intend to establish this criterion in the rhetorical heritage through Hammadi Samoud's reading of the achievements of Al-Jahiz in this domain. Thus, the situationality is considered as one of the seven criteria in modern linguistic studies.

Keywords: Situationalilty - Rhetorical Heritage - Al-Jahiz - Hammadi Samoud - textual criterion

مقدمة :

يظلّ التّراث العربيّ النّقدي والبلاغيّ مصدرا يشغل بال الباحثين و الدارسين ليجيب عن أسئلة تلاق بين هذا التراث ، والنظريات الغربية الحديثة ، لعلّ_في الإجابة عنها أن يُزال هذا الانبهار بالدّرس اللغوي الحديث ، وهو ما اعتبره عبد السلام المسدّي استعادة الثقة_في الذات وإتاحة الانخراط_في الفكر النّقدي الحديث بجرأة.

ومن المسلّم به أنّ التراث العربي لا يزال يقدّم لنا خير مجال لمثل هذه الاستقراءات ولا تزال مادته خاما شأن " البيان والتبيين " للجاحظ ، فإنّ مادة العلم اللغوي في مثل هذا الكتاب هي مادة في مجملها لا واعية وبالتالي ، " فإنّ مصطلحاتها في حدّ ذاتها تمثل مادّة ثرية للباحث المعاصر[1] .

ومن بين نقاط التلاقي بين الدرس البلاغي العربي والدراسات اللسانية الحديثة في كتاب الجاحظ معيار المقامية ، الذي يعدّ معيارا من معايير النصّية عند دي بوجراند .

وسنحاول من خلال هذه الورقة البحثية أن نحلل نظرية المقامات عند الجاحظ وعلاقتها بمبدأ الاختيار .

ومن الدراسات الماتعة التي أحاطت بالموضوع قراءة حمادي صمود للمنجز البلاغي للجاحظ من خلال كتابه : " التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة) ، وقراءة محمد الصغير بناني الموسومة بـ :" النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين " ، ورسالة دكتوراه بعنوان : " الجاحظ_في قراءات الدارسين المحدثين " للطالب محمد عبد البشير مسالتي سنة 2014 من جامعة سطيف .

المقام لغة :

جاء_في اللسان مادة (قوم) : والمقام : موضع القدمين ،قال : هذا مقام قدمي رباح **غدوة حتى دلكت براح ، والمُقامُ والمُقامةُ : الموضع الذي تقيم فيه ، والمقامة : بالضم الإقامة ، والمقامة بالفتح : المجلس والجماعة من الناس : وأما المقام والمقام فقد يكون كل واحد منهما بمعنى الإقامة ، وقد يكون بمعنى موضع القيام ..." [2]

وورد_في القاموس المحيط_في مادة (قوم) : والمقام موضع القدمين ..، والمقامة بالضم كالمَقام والمُقام ، ويكونان للموضع...[3] .

المقام اصطلاحا :

إنّ نظرية المقام_في الدراسات البلاغية لم تكن بحال حديثة العهد ، بل أنّ جذورها تمتد إلى التراث اليوناني خاصة_في كتاب الخطابة لأرسطو ، كما أنّ فكرة الملاءمة بين

المقام والمقال قديمة لم يبتدعها الجاحظ ، وبيان ذلك مسلمات البحث وشهادة الوثائق التاريخية ، فهي من جهة المسلمات ملتحمة وجوديا بكل فعل لغوي يتجاوز قائله ويقصد منه الإبلاغ ، فإذ ذاك يخضع المتكلم تلقائيا كلامه لجملة من الضوابط يفرضها السعي إلى الإفهام ومنزلة المخاطب إذ:" لا تخاطب الطفل مخاطبة الكهل ، وليس حديثنا إلى المثقف حديثنا إلى الجاهل ...ثم إنّ للمكانة الاجتماعية في الكلام تأثيرا ... فلسنا نكلم من يفضلنا في الدرجة كما نكلم الند "[4] .

ولا يخفى أنّ البلاغيين العرب قد اهتموا بمقتضى الحال ، وهو مدار الحديث في صحيفة بشر بن المعتمر (210 هـ) ، التي رأى فيها بديلا لدروس إبراهيم بن جبلة السكوني في تعليم الخطابة ، وترددت هذه الآراء مع الزيادة والنقص في مؤلفات البلاغيين بعده مثل البرهان في وجوه البيان لابن وهب وغيره من كتب نقد الشعر والفلسفة [5]

وسنحاول أن نستقرئ فكرة المقام عند اللغويين العرب بدء ببشر بن المعتمر الذي عدّه كثير من الدارسين صاحب السبق في تأسيس البلاغة العربية .

01 – المقام عند بشر بن المعتمر (210 هـ) : هو " العلامة ، أبو سهل الكوفي ثم البغدادي ، شيخ المعتزلة وصاحب التصانيف كان من الأصول الكبار أخباريا شاعرا متكلما ... له كتاب : " تأويل المتشابه " وكتاب " الرد على الجهال " وكتاب العدل وأشياء لم نرها "[6] ، اتصل بالفضل ابن يحي البرمكي وكان مقربا إليه ، وأزهر في أيام هارون الرشيد وله شخصية قوية ، توفي سنة 210 هـ[7] .

جاء ذكر صحيفة بشر بن المعتمر كاملا في كتاب الجاحظ : البيان والتبيين في باب ذكر ناس من البلغاء والخطباء والأنبياء والفقهاء الجزء الأول ص 135- 136، كما نقلها صاحب العقد الفريد وصاحب الصناعتين ، وكذلك وردت فقرات منها في كتاب العمدة [8] ، وذكرها كاملة شوقي ضيف في كتابه البلاغة تطور وتاريخ.

وقد عدّ أحمد أمين بشرا مؤسسا لعلم البلاغة ، أين يقول : " ففي الأدب يظهر لي أنه أول مؤسس لعلم البلاغة العربية وذلك بالصحيفة القيّمة التي نقلها الجاحظ في البيان والتبيين ، فقد تعرض فيها لأمور أساسية في البلاغة لم أرها لأحد من قبله .."[9]

بيّن بشر بن المعتمر أهمية المقام في حصول البلاغة ، ودعا الأديب أن يراعي حال المخاطب فالناس طبقات ووجب مخاطبتهم حسب مقاماتهم ولا قيمة للفظ ولا المعنى إذا لم يقعا موقعهما فلكل مقام مقال ،في ذلك يقول : " وينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم

أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات، فإن كان الخطيب متكلما تجنب ألفاظ المتكلمين. "[10].

06 – المقام عند ابن طباطبا (322 هـ) : في كتابه عيار الشعر يجعل ابن طباطبا مراعاة المقام من أسباب حسن الشّعر وقبوله ، فيقول وفي عنوان علة أخرى : " ولحسن الشعر وقبول الفهم إيّاه علة أخرى وهي موافقته للحال التي يعد معناه لها، كالمدح في حال المفاخرة، وحضور من يكبت بإنشاده من الأعداء، ومن يسر به من الأولياء. وكالهجاء في حال مباراة المهاجى، والحط منه حيث ينكى فيه استماعه له. وكالمراثي في حال جزع المصاب، وتذكر مناقب المفقود عند تأبينه، والتعزية عنه. وكالاعتذار والتنصل من الذنب عند سل سخيمة المجني عليه، المعتذر إليه. وكالتحريض على القتال عند التقاء الأقران وطلب المغالبة. وكالغزل والنسيب عند شكوى العاشق، واهتياج شوقه وحنينه إلى من يهواه.. " [11] .

02 – المقام عند أبي هلال العسكري (395 هـ) : بيّن أبو هلال العسكري ضرورة ربط المقال بالمقام في معرض حديثه عن تفضيل جرير على الفرزدق وأبي نواس على مسلم قائلا : " و لا يكلّم سيّد الأمّة بكلام الأمّة ، ولا الملوك بكلام السوقة ، لأنّ ذلك جهل بالمقامات ، وما يصلح في كل واحد منهما من الكلام ، وأحسن الذي قال : لكل مقام مقال . وربما غلب سوء الرأي ، وقلة العقل على بعض علماء العربية ، فيخاطبون السوقي والمملوك والأعجمي بألفاظ أهل نجد .." [12].

فقد عدّ عدم مناسبة المقال للمقام جهلا وسوء رأي وقلة عقل حين يخاطب سيد الأمة بكلام الأمة .

05 – المقام عند عبدالقاهر الجرجاني (471 هـ) : لقد أرسى الجرجاني نظريته النظم على فكرة الملاءمة في معرض حديثه عن فكرة التعليق ، يقول : " واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علما لا يعترضه الشك ، أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب ، حتى يعلق بعضها ببعض ، ويبنى بعضها على بعض ،وتجعل هذه بسبب من تلك ، هذا ما لا يجهله عاقل ولا يخفى على أحد من الناس ، وإذا كان كذلك ، فبنا أن ننظر إلى التعليق فيها والبناء ، وجعل الواحدة منها بسبب من صاحبتها " ، هاته العلاقة التي أشار إليها الدكتور تمام حسان وهو يتناول القرائن ، وقد عدّ منها الحالية أو المقامية.

يقول الجرجاني : " إن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها فى ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ ، وما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك فى موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك فى موضع آخر"[13] .

أي أنّ الجرجاني قد أشار إلى فكرة المقام وكلمة (موضع) فى هذا النص معناها المقام.

03 – المقام عند السّكاكي (626 هـ) :

أفرد السّكاكي في كتابه مفتاح العلوم عنوانا سمّاه (لكل مقام مقال) ، ممّا جاء فيه : " لا يخفى عليك أنّ مقامات الكلام متفاوتة ، فمقام الشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب ، ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل ، وكذا مقامُ الكلام ابتداء يغاير مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار ، ومقام البناء على الإنكار ، جميع ذلك معلوم لكل لبيب ، وكذا مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقتضًى غير مقتضى الآخر" [14].

ويتضح أن السّكاكي كان عالما بقيمة مقامات الكلام وتفاوتها وأن هذا لا يغفل عنه لبيب ، لذا أولاه أهمية وعقد له باب من كتابه .

04 – المقام عند الخطيب القزويني (729 هـ) : إنّ من أشهر تعريفات البلاغة اصطلاحا ما أجمع عليه البلاغيون وألزموه تعريفا للبلاغة هو قول القزويني : " وأمّا بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته ، ومقتضى الحال مختلف فإنّ مقامات الكلام متفاوتة فمقام التنكير يباين مقام التعريف ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد ومقام التقديم يباين مقام التأخير ومقام الذكر يباين مقام الحذف ...فمقتضى الحال هو الاعتبار المناسب وهذا أعني تطبيق الكلام على مقتضى الحال هو الذي يسمّيه الشيخ عبدالقاهر بالنظم حيث يقول النظم تأخي معاني النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التي يصاغ لها الكلام " [15] .

المقامية في الدراسات الغربية الحديثة :

لقد أولى اللغويون الغربيون المحدثون اهتماما خاصا للسّياق وبيّنوا أثره في تحديد دلالة الحدث الكلامي ، ويعدّ فريدينان دي سوسير من أبرز الذين أبدوا هذا الاهتمام ، وذلك عندما بيّن أنّ الكلمة إذا وقعت في سياق ما ، لا تكتسب قيمتها إلا من خلال علاقتها بما يسبقها أو يلحقها ، أو معهما في وقت واحد ، وهي الفكرة نفسها التي قال بها عبدالقاهر الجرجاني [16] .

وقد أشار دي بوجراند إلى معيار المقامية وهو يقترح المعايير النصية قائلا : " وأنا أقترح المعايير التالية لجعل النصّية TEXTUALITY أساسا مشروعا لإيجاد النصوص واستعمالها " ، فذكر (السبك و الالتحام و القصد و القبول ثم رعاية الموقف

STTUATIONALITY وهي تتضمن العوامل التي تجعل النّص مرتبطا بموقف سائد يمكن استرجاعه ، ويأتي النّص في صورة عمل يمكن له أن يراقب الموقف وأن يغيره .." [17]

نظرية المقامات عند الجاحظ في كتابه البيان والتبيين :

إنّ شهرة الجاحظ أكبر من أن يعرّف به ، " ولولا التعصب الثقافي المسيطر على الأفراد و الأمم ، والوهن الذي أصاب بني جلدته منذ زمن طويل لكان صاحبنا اليوم يتمتع بعالمية أكثر مما يعترف له بها الآن " [18] .

والشهرة التي نالها الجاحظ كانت من خلال كتابه : " البيان والتبيين "*

والمعروف عن الجاحظ أنّه أديب ألمعي بلاغي مجد ، غير أنّ : " الجانب اللساني يعتبر من الجوانب المهملة في تراثه ، مع أنّه من أبدعها وبخاصة من أهمها بالنسبة لنا في هذا العصر الذي سادت فيه اللسانيات وطغت على ميداني النقد والأدب .." [19]

حمادي صمود وقراءته للمنجز البلاغي للجاحظ :

بنى حمادي صمود كتابه :" التفكير البلاغي عند العرب " على ثلاثة أبواب أساسية يشكل الجاحظ ركيزتها وعنوانها الرئيس (البلاغة قبل الجاحظ /الحدث الجاحظي/ البلاغة بعد الجاحظ) ، كما يربط حديثه عن فكرة المقام عند الجاحظ بالحديث عن الكلام والمتكلم يقول : " والنتيجة الطبيعية بل الحتمية لهذا التصور الشامل للتواصل اللغوي والتشبث بوظائفية الكلام بروز فكرة ضرورة ربط المقال بالمقام وملاءمته لمقتضى الحال ، وهي فكرة رئيسية أقام عليها أبو عثمان كل مادته البلاغية [20] .

---

* غير أنّه يمكن القول أن محقق الكتاب عبد السلام هارون " قد صوّب اسم كتاب الجاحظ وذكر أنّ الصواب هو : البيان والتبيّن " [21] ، ودلّل على ذلك في كتابه قطوف أدبية ص 97.

يبرز صمود في هذا النص أنّ المقام يشكل ركيزة أساس في طرح الجاحظ ويظهر ذلك في جملة المصطلحات التي وظفها وهو يوصل فكرته نذكر منها :

" المقام" و" الموضع" و" الحال " كذلك "الأقدار" أو " المقدار " و" المشاكلة " و" المطابقة " وجميعها فروع عن أصل ثابت في تفكيره وان لم يتبلور على الصعيد الاصطلاحي هو فكرة المناسبة والملاءمة[22]

يأتي صمود بعد فحص وتمحيص علمي دقيق يستأنس فيه بمكتسبات الدرس اللساني الحديث بوعي منه ، لينظر في أبعاد طرح الجاحظ حيث أجمل مصطلحات مفهوم المقام في قسمين كبيرين هما :

القسم الأول : ويندرج تحت هذا القسم كل ما يدل عليه المقام والموضع والحال ، وقد حصر صمود هذا القسم في ثلاثة عناصر : (المخاطب/ جنس الكلام/ القصد من الحديث)[23].

1-المخاطَب : اختزل الجاحظ شروط المخاطَب في أمرين اثنين : مقدار الطاقة / أقدار المنزلة ، أمّا الأولى فتعني عنده الزاد اللغوي والمنزلة العلمية المطلوب حصولها لدى المخاطب ، بينما الثانية فتشير إلى رتبته في السلّم الاجتماعي وحظّه من الجاه والسلطان ، إذ يقول الجاحظ : " ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم والحمل عليهم على أقدار منازلهم " .[24]

يعتبر الجاحظ المقام عامة ومقام الخطابة خاصة محور تأليفه في البيان ومنطلق تصوراته لبلاغة النص ولهذا عُدّت مؤلفاته أهم مصدر لدراسة الخطابة العربية إلى القرن الثالث ...[25]

وبالحديث عن مقام الخطابة لا بد من الإشارة إلى ما توصل إليه صمود من وجود عاملين شكلا خصائص المخاطِب في هذا المقام هما : المشافهة والمواجهة ، فأمّا المشافهة فتندرج تحته كل المعلومات المتعلقة بالجانب المادي الفيزيائي لعملية التلفظ سواء تعلقت بصفة الصوت من جهارة ورقة أو كيفيات النطق وما قد يعتريها من آفات وانحرافات متأتية إمّا عن نقص خلقي في الآلة أو وضع لغوي متداخل الأنظمة[26].

لقد أفضت قراءة صمود لبنية المقام عند الجاحظ عن سعة إطلاع وتحليل بارزين أين تناول كل ما يتعلق بالشروط الواجب مراعاتها لحظة المشافهة بحكم اهتمامه بمقام الخطابة .

فقد تطرق الجاحظ إلى المسائل الصوتية التي استقى بعضها من جهود أسلافه اللغويين واستقى بعضها من تجربته الشخصية ، واستطاع أن يرسم صورة واضحة المعالم عن الوضع اللغوي في عصره وما طرأ على العربية من تغييرات بمفعول مؤثرات عديدة أهمها تداخل اللغات والأجناس ، فقد اهتم بتعريف الصوت وأشار إلى المفارقة بين المنطوق والمكتوب وقصور الكتابة عن تصوير جميع الأصوات ، ومن ثمّ رأيه المشهور في أن المخارج لا تحصى ولا يوقف عليها [27]

فالجاحظ يولي أهمية بالغة للصوت ويعتبره كل شيء في الإنسان بل هو الإنسان نفسه[28] .

كما أنّ الجاحظ أظهر اهتماما بالغا بقضية المخارج حين تحدّث عن تنوع مخارج الحروف مثلا عند النبطي الذي يعيش في سواد الكوفة وكذلك الخراساني ، وهو يعلم أنّ المخارج لا تحصى ولا يوقف عليها ، و هذا المفهوم قديم عند العرب ، والخليل بن أحمد كان يدركه أحسن الإدراك لكن من يتتبع الأوصاف التي وصف بها الجاحظ هذا المفهوم يتحقق أنّه يعطيه معنى أوسع ، وخاصة عند استعماله له في صيغة الجمع ، فهو في هذه الصيغة يصبح قريبا جدا من معنى نظام اللغة (systeme) في علم اللسانيات [29].

وجملة ما ينبغي مراعاته في المشافهة ، مسألتان يراهما صمود أساسيتين في تحصيل البلاغة هما :

أ-الصفات الصوتية : لم يفت صمود وهو يحلل رؤية الجاحظ للكلام والمتكلم ، ذكر الشروط والصفات الواجب توفرها وتستحسن في الخطيب ، فقد أشار الجاحظ إلى وجود ثلاث أو أربع صفات صوتية تستحسن في الخطيب ، ودعم رؤيته برواية : (وكان سهل بن هارون شديد الإطناب في وصف المأمون بالبلاغة والجهارة وبالحلاوة والفخامة وجودة اللهجة والطلاوة) [30] ، فهذه الرواية جمعت الصفات الأربع – وان كانت بعيدة المنال ، حتى يبلغ البليغ درجة راقية .

ب- آفات النطق : وان اهتم الجاحظ بالصفات الصوتية المستحسنة في الخطيب ، فإنه لم يغفل عن آفات النطق التي أجملها في قسمين : (قسم يتسبب فيه النقص الخلقي في آلة النطق واعتنى بظاهرة اللثغة خاصة فذكر عدد الحروف التي تدخلها وما يمكن تصويره بالخط منها وما لا يمكن وتحدث عن مراتبها في القبح والحسن وأشهر من عرفوا بها من الفصحاء والأنبياء .

وقسم مردّه التداخل اللغوي أو تأثير اللغات الأجنبية .فقد قرر أن التقاء لغتين يؤثر لا محالة على نظام كل واحدة منهما .:" واللغتان إذا التقتا في اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها "[31].

و هذا المبدأ عرف في اللسانيات الحديثة ، انطلاقا من الدراسات المهتمة بتفاعل اللغات وما ينجر عنها من تداخل سواء على صعيد النظام الصوتي أو السلم الوظيفي .

إلى جانب هذين الاعتبارين يضيف صمود بقية المتطلبات الأخرى عند الجاحظ أهمها : نشاط السامعين ووجودهم على هيأة جسدية وعقلية تسمح لهم بتمثل ما يقال لهم وقد نقل في هذا الصدد قول عبدالله بن مسعود :"حدّث الناس ما حدجوك بأبصارهم ، وأذنو ذلك بأسماعهم ولحظوك بأبصارهم ، وإذا رأيت منهم فترة فامسك، وهو أن تكون هناك مناسبة في الاهتمام بموضوع الحديث ، وهذه المناسبة تخلق توازنا بين إرادة الكلام عند

المتكلم وإرداة الفهم والتقبل عند السامع :" اذا لم يكن المستمع أحرص على الاستماع من القائل على القول لم يبلغ القائل في منطقه وكان النقصان الداخل على قوله بقدر الخلة بالاستماع منه " [32]

فنجاح العملية التخاطبية تنتج من تكامل بين المخاطِب والمخاطَب ، ولا بد من حضور عقلي للمتلقي يبدي اهتماما بتلقي الخطاب .

وأمّا المواجهة فلا شك أنّها تشكل عقبة في نفس الخطيب ، فالخطيب يلقي كلامه في حفل ويتوجه إلى الجماعة في مناسبة معلومة وموضوع مضبوط ، وهذا أمر عسير يتطلب من المتصدر له خصالا نفسية وشخصية تشد أزره وتقوي عزمه ليمضي في كلامه على ما يقتضيه المقام ، فلا تبرز عليه علامات الارتباك والرهبة ولا يتقطع السلك الناظم لأفكاره ، كما أنّ لخلقته وهيأته دخلا في تحقيق مقصده باعتبار المعاينين له يتأثرون إلى حد بعيد بكل الظروف الحافة بالنص [33]

فموقف مقابلة الناس موقف يحتاج إلى استعداد عقلي ، لذا يلح الجاحظ على صعوبة التصدر ، ولعل روايته عن عبد الملك بن مروان : عجّل عليك الشيب يا أمير المؤمنين قال : وكيف لا يعجل علي ، وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة مرة أو مرتين " يعني خطبة الجمعة وما يعرض من الأمور .[34]

فهذه الوسائل الخارجية مهمة جدا ، فاللسانيات الحديثة تدرك الآن أهميتها في كل تأدية كلامية وطغيانها على الوسائل اللسانية المحضة أدى ببعضهم أخيرا إلى القول : أنّ التبليغ لا يتم بوساطة العلامات اللسانية وإنما بوسائل رمزية تحيط بهذه العلامات وتحف بها من كل جانب [35].

2-جنس الكلام : ويعبر عنه صمود بـ(المقام) وهو يتطلب من المتصدر له أن يكون عارفا بمواضعها ومناسباتها ليصوغ كلامه وفق ما تقتضيه ، فمنها ما يكون بالشعر ومنها ما يكون بالكلام المنثور مقفى وغير مقفى في حين لا يأت بعضها إلا مسجوعا ، كما أنّ بعضها يتطلب الصنعة وتعهد الصياغة ، بينما يفترض بعضها الآخر البعد عن التصنع والخلو من التكلف "[36].

فمقتضى الحال يحدد طبيعة المقال ، ولكل صنف من الناس كلام يليق بمقامهم .

3- القصد من الحديث : وهو عمود سنام البلاغة فينبغي على الخطيب أو المتكلم ألاّ يخلط بين أقدار الألفاظ وأقدار المعاني ، ولا يتصنع الجدّ حيث يجب الهزل ، ولقد أتى الجاحظ على القسم الكبير من هذا الجانب عند حديثه عن منزلة المخاطب ، فلقد رأيناه يطالب المتكلم أن يوفي المنازل حقها فلا يستعمل اللفظ المنطقي ، مثلا إذا كان السماع من أهل

الصناعة وكان الموضوع صناعة الكلام وعليه أن يرغب في هذا المقام عن ألفاظ الأعراب وألفاظ العوام ، أما إذا كان في خطبة أو رسالة أو في مخاطبة العوام والتجار فقبيح به أن يستعمل ألفاظ المتكلمين[37].

القسم الثاني : ويشكل هذا القسم عصب فكرة المقام عند الجاحظ حسب رؤية حمادي صمود وتدل عليه مصطلحات (المشاكلة / المطابقة / الأقدار/ المقدار/ وما جرى مجراها)، وهذا أخص في الدلالة من القسم السابق وان اتحد في الرؤية ، ووجهته الكلام في حد ذاته وما على المتكلم مراعاته في تعليق عناصره بعضها ببعض من (الصوتم*) إلى النّص، فهناك قوانين للملاءمة بين مكونات الكلمة ثم بين الكلمة وما تدل عليه أو العلاقة بين الألفاظ والمعاني فترابط المعاني خاصة معاني الشعر والأجزاء المكونة للبيت [38].

هذه الملاءمة بين الكلم بعضه لبعض عبّر عنها الجرجاني بفكرة التعليق والتعالق وأنّ الكلم بعضه من بعض ، ومن هنا يبرز مفهوم النسبية في تحديد بلاغة النص ، فبحكم ترابط المقال والمقام ترابطا جدليا تصبح خصائص الكلام غير منفصلة عن السياق الذي يحتويه ، معنى ذلك أن الحكم للكلام أو عليه لا يتعلق بشيء في ذاته ومواصافات تتولد داخله توالدا ذاتيا وجوده وجود علاقي ظرفي ، ومؤدى النسبية انعدام الفصاحة المطلقة والبلاغة المطلقة ولذلك تختلف المقاييس باختلاف المواضع. [39]

من خلال هذا الطرح يتضح أنّ مقام الخطاب يبرر أسلوبه ، وما يبدو إطنابا وعجزا أمر خاطئ ان لم نقيده بالموقف الذي قيل فيه ، فالأساليب البلاغية لا تفقد قيمتها الأدبية إذا كانت ملائمة لمقتضى الحال.

وهذا ما يقول به صمود نقلا عن الجاحظ : " ووجدوا الناس إذا خطبوا في صلح بين العشائر أطالوا ، وإذا أنشدوا الشعر بين السماطين في مديح الملوك أطالوا ، وللإطالة موضع وليس ذلك بخطل ، وللإقلال موضع وليس ذلك عن عجز " [40].

---

* أورد حمادي صمود هذا المصطلح (الصّوتم) في كتابه التفكير البلاغي ص 193 ، ويعني به الفونيم .

الاختيار صنيعة نظرية المواضع و المقامات :

لقد كان لارتباط المقام بمبدأ الاختيار أثر واضح في نظرية الجاحظ المقامية حيث احتل صدارة المقاييس في التمييز بين الأساليب وتفضيل بعضها على بعض وأسس

الاختيار في هذا المضمار تحقيق الملاءمة بمعنييها العام والخاص ، أي بين الأطراف الداخلة في تركيب الكلام وبين السياق الحاف بها .

أمّا محور التخيير عند الجاحظ فيقصد به : " المستوى العمودي أو الصرفي للكلمات ويأتي عنده مصحوبا عادة بلفظ " تخير اللفظ أو الألفاظ المتخيرة ، ويبدو أيضا في قوله : " وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني والسياق الذي أورد فيه الجاحظ هذه العبارات كلها يدل على أنه يقصد به المستوى العمودي للكلمات داخل الجملة [41] .

وعن شروط اللفظ حتى يقر في الأذهان ويحبب إلى النفوس يقول الجاحظ : " متى شاكل – أبقاك الله – ذلك اللفظ معناه وأعرب عن فحواه وكان لتلك الحال وفقا ولذلك القدر لفقا وخرج من سماجة الاستكراه وسلم من فساد التكلف وكان قمينا بحسن الموقع وبانتفاع المستمع ..ومتى كان اللفظ أيضا كريما في نفسه، متخيرا من جنسه، وكان سليما من الفضول، بريئا من التعقيد، حبّب إلى النفوس، واتصل بالأذهان، والتحم بالعقول، وهشت له الأسماع، وارتاحت له القلوب، وخفّ على ألسن الرواة، وشاع في الآفاق ذكره.."[42].

فما ذكره الجاحظ من شروط للاختيار تنبئ عن مدى حذقه وتملكه لناصية البيان أين اشترط في الألفاظ أن تكون متخيرة منتقاة ويراعى في اختيارها تأليفها كذلك بحيث تلتئم مع جاراتها ، وفي إطار اللفظة المفردة يجب ألا تكون متكلفة مستكرهة ولا سوقية ساقطة بل تكون كريمة متخيرة في جنسها وفي إطار علاقاتها بجاراتها من الألفاظ الأخرى يجب أن تكون لفقا لجاراتها ، إذا اللفظة المفردة يجب أن يكون اختيارها اختيارا معجميا يناسب موقعها في التركيب وما توحي به من ظلال من خلال هذا الموقع في التركيب ، مراعين في ذلك أثرها في نفوس المتلقين ، وكذلك حسن تنسقيها وتأليفها مع غيرها من الألفاظ التي تجاورها " [43] .

ومن خلال ذلك يرى محمد الصغير بناني أنّ محوري التأليف والتخيير أصبحا من المفاهيم الأساسية في اللسانيات والبلاغة الحديثة " [44] .

وللجاحظ نصان يبرزان هذين المستويين العامي والخاص ويظهر فيهما ضرورة التخيير في قوله : " وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ،وملحة من ملح الحشوة و الطغام ، فإياك أن تستعمل فيها الإعراب أو تتخير لها لفظا حسنا أو تجعل لها من فيك مخرجا سريا ،فإن ذلك يفسد الإمتاع ،ويخرجها من صورتها [45]

ويقول في نص آخر " رأس الخطابة الطبع وعمودها الدربة وجناحاها رواية الكلام ، وحليها الإعراب ، وبهاؤها تخير اللفظ...[46] .

ففي النص الثاني يقر الجاحظ أنّ بهاء الخطابة تخير اللفظ ،_في هذا يقول عبد السلام المسدي: " أوّل مقياس انبنت عليه نظرية الجاحظ في تحديد الأسلوب هو مبدأ "اختيار اللفظ " والناظر في مادة البيان والتبيين يستشف منطلقات الجاحظ في صوغ مبادئه البلاغية العامة .ومن أبرز ذلك تأكيده على أنّ الخلق الفني إنما هو عمل أو قل صناعة، فمعنى ذلك أنه يرضخ لنوعين من الأبعاد التقييمية : فكلّما ازداد صاحبه به وعيا كان أحكم ، وكلّما طالت مدة مخاضه كان أعمق، وهذا هو الذي جعل خير الشعر الحوليّ المحك" [47] .

خاتمة :

إنّ نظرية المقامات عند الجاحظ ، ومن منظور قراءة حمادي صمود الواعية ليؤكد مدى مكانة الجاحظ_في الدراسات اللسانية قديما وحديثا ، وما هذه النظرية واهتمامه بمراعاتها عند تناوله لقطبي الخطاب (الكلام والمتكلم) لخير دليل على مرتبة المقام_في الخطابة .

و يؤكد صمود أنّ كثيرا مما جاءت به النظريات الغربية له جذور_في تراثنا ، فهذا الحضور اللغوي قار_في الأسلوبية من خلال أحد محدداتها فيما يخص عنصر الاختيار الذي يكون حدا فاصلا بين نوعين من الممارسة اللغوية : ممارسة اجتماعية وأخرى فنّيــة ، وأنّ النّاس على مستويين ولكل لغته لهذا قالت العرب : " لكل مقام مقال " ، فكان تركيز الجاحظ على مبدأ الاختيار واضحا و بنى رأيه_في اللفظ والأسلوب عامة.

وهكذا يمكننا القول: " بأنّ الجاحظ يعتبر رائدا من روّاد الدرس اللغوي الحديث ، و أحد واضعي لبناته فقد اتخذ علماء اللغة المحدثين اجتهاداته العلمية وعدّوها أرضية انطلاقة متينة لتأسيس كثير من آرائهم ونظرياتهم ، وبهذا يجب الإقرار بأنه كان مدركا لأصول اللسانيات الحديثة أولا وواعيا بمحوري الاختيار والتأليف ثانيا ، ولا عجب أن ينعت بأنّه رائد مدرسة أطلق عليها المدرسة الإنسانية[48] ، لما له من غزارة وتنوع وشمول معرفي تحتاج منا اليوم أكثر من أي وقت مضى إلى إعادة قراءتها قراءة وعي لمدّ جسور المعرفة بين الماضي والحاضر.

الهوامش :

01 – عبد السلام المسدي ، قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون ص 121.

02 –ابن منظور ، لسان العرب مادة (قوم) ، ج1 ص 498 .

03 –الفيروزآبادي ، القاموس المحيط ص 1152.

04 –حمادي صمود ، التفكير البلاغي عند العرب ، ص 194 .

05 – محمد العمري ، _في بلاغة الخطاب الإقناعي ص 32 .

06 – الإمام الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج 10 ص 203 .
07 – أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج 03 ص 142 .
08 – الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج1 ص 135 .
09 – مجلة جيل الدراسات الأدبية . العدد الثالث سبتمبر 2014 ص 10.
10 – الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج1 ص 136 .
11 – ابن طباطبا ، عيار الشعر ، ص 22
12 – أبو هلال العسكري ، الصناعتين ، ص 27 .
13 – الجرجاني عبدالقاهر ، دلائل الإعجاز ، ص 55.
14 – السكاكي ، مفتاح العلوم ص 174.
15 – الخطيب القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، ص12
16 – عبدالخالق فرحان شاهين ،أصول المعايير النصية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب ص 79
17 – دي بوجراند ، النص والخطاب والإجراء ، ترجمة تمام حسان ، ص104.
18 – محمد الصغير بناني ، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ ص 5
19 – الشريف حاتم بن عمارة ، العنوان الصحيح للكتاب ، ص 83.
20 – حمادي صمود ، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس ، ص 189.
21 – محمد الصغير بناني ، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ ص 8
22 –المرجع السابق نفسه ، ص 190.
23 – المرجع السابق نفسه ، ص 190.
24 – الجاحظ أبو عثمان ، البيان والتبيين ج 1 ص 192.
25 – حمادي صمود ، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس ، ص 211.
26 – المرجع السابق نفسه ، ص 213.
27 – المرجع السابق نفسه ، ص 214.
28– محمد الصغير بناني ، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ ص 111
29 – المرجع السابق نفسه ، 115.
30 – المرجع السابق نفسه ، ص 215.
31 – المرجع السابق نفسه ، ص 216.
32– الجاحظ أبو عثمان ، البيان والتبيين ج 2 ص 315
33 – حمادي صمود ، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس ، ص 221.
34 – المرجع السابق نفسه ، ص 212.
35 – محمد الصغير بناني ، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ ص 244.
36– المرجع السابق نفسه ، ص 192.
37 – المرجع السابق نفسه ، ص 192.
38 – حمادي صمود ، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس ، ص 194.
39 – المرجع السابق نفسه ، ص 193.
40 – المرجع السابق نفسه ، ص 196.

41 – محمد الصغير بناني ، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ ص 124.
42 – الجاحظ أبو عثمان ، البيان والتبيين ج 2 ص 384
43 – نفسه ، ص 390.
44 – محمد عبد البشير مسالتي ، أطروحة دكتوراه الجاحظ في قراءات الدارسين المحدثين ص 332.
45 – الجاحظ أبو عثمان ، البيان والتبيين ج 1 ص 113.
46 – نفسه ، ص 115.
47 – عبد السلام المسدي ، قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون ص 133.
48 – عبد السلام المسدي ، المقاييس الأسلوبية في النقد الأدبي من خلال البيان والتبيين للجاحظ ص 137

--------- ****** ---------

-المصادر والمراجع :

01 – أبو يعقوب يوسف ابن أبي بكر محمد بن علي السكاكي ، مفتاح العلوم ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ط2 / 1987 .
02 – ابن طباطبا ، محمد أحمد بن طباطبا العلوي ، عيار الشعر ، شرح وتحقيق عباس عبدالساتر، منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ط2/ 2005 .
03 –ابن منظور ، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم ، لسان العرب ، المجلد10 دار صادر بيروت.
04 – أبو بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمان بن محمد الجرجاني النحوي ، دلائل الإعجاز ، قرأ وعلق عليه أبوفهر محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة ،ط2004/5 .
05 – أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ، ج3 / ط 7 / 2001 .
06 – الحسن بن عبدالله بن سهل أبي هلال العسكري ، الصناعتين الكتابة والشعر ، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبوالفضل ابراهيم ، دار إحياء الكتب العربية القاهرة مصر ، ط1952/1
07 –الجاحظ ، أبوعثمان عمرو بن بحر البيان والتبيين تحقيق وشرح عبدالسلام هارون مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع ، ط1 / 2010 .
08 – الشريف حاتم بن عارف العوني ، العنوان الصحيح للكتاب تعريفه وأهميته ..، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع ، ط1419/1 ه.
09 – شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرنؤوط وحقق الجزء 10 محمد نعيم العرقسوسي ، مؤسسة الرسالة ، ط11 / 1996 .
10 – حمادي صمود ، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة) ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، ط3 / 2010 .
11 – روبرت دي بوجراند ، النص والخطاب والإجراء ترجمة الدكتور تمام حسان ، دار عالم الكتب ، ط1998/1
12 – عبدالخالق فرحان شاهين ، أصول المعايير النصية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب ، رسالة مجاستير 2012 ، جامعة الكوفة ، كلية الآداب قسم اللغة العربية .
13 – عبدالسلام المسدي ، قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون ، دار سعاد الصباح ط 4 1993/

14 – عبدالسلام المسدي ، المقاييس الأسلوبية في النقد الأدبي من خلال البيان والتبيين ، منشورات حوليات الجامعة التونسية تونس ، العدد 13 / 1976 .
15 – محمد العمري ، في بلاغة الخطاب الإقناعي مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية ،أفريقيا الشرق ، ط2002/2 .
16 – محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر1983 .
17 – محمد بن عبدالرحمان بن عمر جلال الدين الخطيب القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، تحقيق مجدي فتحي السيد ، مكتبة التوفيقية (القاهرة) ، د . ط
18 – محمد عبد البشير مسالتي ، أطروحة دكتوراه العلوم الجاحظ في قراءات الدارسين المحدثين ، جامعة سطيف 2 سنة 2014/2013 .
19 – مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ، القاموس المحيط ، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان ، ط8 / 2005 .
20 – مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية بيروت لبنان ، العدد 3 / سبتمبر 2014 .